

## نظرات في مجموعة شعريّة جديدة الأرض عطشى

بقلم: علي العربي

ظهر مؤخراً ديوان الشاعر الشاب سوف عبيد "الأرض عطشى". وقد طبعه على نفقته الخاصّة، واقبال القصاصين والشّعراء على طبع انتاجهم بأنفسهم يدلّ على أنّ دور النشر الكبيرة أصبحت لا ترضى طموح الأدباء من حيث الإسراع بالطبع أوّلا والإيفاء بحقوقهم الماديّة ثانيا، فهناك من ينتظر طبع كتاب له منذ سنوات وهناك من يكون نصيبه من الكتاب عدّة نسخ يبيعه أو يفرّقها على أصدقائه وإزاء ذلك أصبح متحمّما على الأدباء أما أن يتعاونوا في ما بينهم لإصدار كتبهم كما فعل بعض القصاصين، وإمّا طبع دواوينهم كلّ على حدة كما فعل بعض الشعراء ومنهم سوف عبيد، وهي ظاهرة تستحقّ أن تعالج في حلقات دراسيّة يشترك فيها الأدباء والكتاب والمشرّفون على دور النشر القوميّة، والدّي يهمنّا في هذه الأسطر هو تقييد بعض الملاحظات بعد قراءة ديوان "الأرض عطشى".

(1) يحتوي هذا الديوان الأوّل للشاعر على اثنتين وعشرين قصيدة ومقطوعة فأكبر قصيدة هي البدء (ص 20-22) وأصغر مقطوعة هي شبان (ص 29)، وقد أرّخت القصائد تاريخا لم يراع فيه صاحبه التدرّج إذ نجد قصيدة البدء المشار إليها قد كتبت سنة 1975، ومقطوعة باب الجنّة الموالية لها سنة 1973 وبعض قصائد الديوان نشرت سابقا (في الحياة الثقافيّة مثلا) أمّا من حيث التّقديم الفنيّ فلم يكن جيّدا، فبعد صفحة الغلاف نجد في الصّفحة الأولى ويطلب من الشاعر إلخ ... وتحتها إسم المطبعة وتاريخ الطبع، ثمّ عندما نقلب الورقة نجد القصيدة الأولى، كما تكثر في هذا الديوان الأخطاء المطبعيّة، ويخلو هذا الديوان من مقدّمة على عادة الكتب الأخرى التي ترفق بشهادة رضى أو شهادة استحسان، وقد أحسن الشاعر صنعا عندما استغنى عن مثل هذه الشّهادات المتهرئة التي أصبحت لا تغني ولا تسمن من جوع.

لا يمكن توزيع القصائد والمقطوعات حسب السّنوات، فنجد في سنة 1973 أربع قصائد وفي سنة 1974 ستّ قصائد، وفي سنة 1975 تسع قصائد، وفي سنة 1978 نجد قصيدة واحدة، وفي السّنة الموالية قصيدتين فهو إذن يكتب الشعر منذ سبع سنوات، ومطالب بالتّجويد فيه، وقبل أن نلج عالم الشاعر يحسن بنا أن نتعرّض إلى مفهوم الشعر ورسالة الشاعر في عصرنا.

(2) لا شكّ أنّ الشعر تجربة شخصيّة يقوم بها فرد فتسري في ضمير

الجماعة وتصبح ملكا لها تدافع عن تجربتها وشعورها، فالشاعر إذن كالباحث عن اللؤلؤ سرعان ما يثري به أمته، وكذا الشاعر يحاول أن يري الناس العالم من خلال عينيه، فيكشف لهم عن عوالم جديدة، ولكنها ليست غريبة، عنهم، لأنها كامنة في أعماقهم، ودور الشاعر هو إبرازها من منطقة القوة إلى عالم الفعل ولا يتسنى للشاعر أن يكون كذلك إلا إذا هز النفوس وحرك الطباع - كما يقول ابن رشيق في العمدة - فنحن ندرك قيمة الشعر بإحساسنا له، وتأثيره فينا لأنه وصف لشعورنا وعواطفنا ومطامحنا التي لم نستطع التعبير عنها وليس من الضروري أن تهتز نفوسنا للشعر الموزون المقفى، فلكل عصر أنغامه وأوزانه وقوافيه، ولكل زمان همومه ومشاغله، فلربما يستطيع الشاعر الحق أن يحرك طباعنا وينجح في خلق ذلك الخيط الرفيع الذي يشدنا إلى عالمه الذي بناه من روحها وقلبه وعواطفه بدون إلتزام لأوزان الخليل، والمهم أن يبت في نفوسنا الوعي ويكشف لنا عن مواطن الوهن وأسباب الجذب، ويتغنى معنا بقدسية الكلمة ومنزلتها، ويبعدنا عن الميوعة، والإثارة ويساعدنا على الإيمان بفكرة ما، فهل استطاع سوف عبيد أن يكون كذلك؟

يقول في القصيدة التي أخذ منها عنوان ديوانه: (3)

**أحبيني تخوم القارات الخمس**

**ونجوم السماوات السبع**

**صبي الصّور في مسام جلدي**

**حتى الدّروة**

**فالأرض عطشى**

**فالأرض عطشى (ص 21)**

نلاحظ في هذه القصائد والمقطوعات كلمات تردّد بكثرة مثل الشّمس (16 مرّة) وهي رمز الحياة والحريّة والبهجة، ونراها هنا مقطبة الجبين تسقط من قرصها وتولي الطيور أجنتها شطرها، وهي غائبة عتّا، ونحن نسرق منها بسمتها، وتوظيف الشّمس في الشعر التّونسيّ المعاصر ظاهرة عامّة يمكن ملاحظتها ابتداء من ديوان "غدا تطلع الشّمس" لجعفر ماجد إلى ديوان "أقسمت على انتصار الشّمس" لمختار اللّغمانى، فسوف عبيد شاعر يغنى مع سرّبه.

أمّا الأرض فإنّها جافّة قاحلة فلا خضرة ولا ماء ولا حياة، ويبدو العطش كالطّاعون يهدّد العسافير والأطفال والصّبايا، وما على الإنسان إلا أن يكون صابرا وذا إرادة قويّة حتى يقهر القوى التي تحوّل الماء إلى طين، وتجعل العصفورة لا تأوي إلى عشّها بعد أن جثم كابوس الدّنيا على ريشها، فالحنين إلى الماء والشّمس والخضرة هو محور هذه القصائد والمقطوعات، فالإنسان ينتظر الزّهر وكأنّه سينبت بعد ألف عام:

**حتى ينبت في جبيني الزّهر**

ضمي رأسي بين نهديك حتى

ينبت الزهر

رأسي كرة أرضية تدور

وعالم قفر

ضميه ودثريه

حتى ينبت على جبيني الزهر (ص 10)

والشاعر معني بالإنسان في كل مكان في مصر وتخوم القارات الخمس يتعني بأمانيه وأماله في شعر لا يخلو من الرمز والشفافية، وعندني أن هذا الرمز محبب إلى حد ما لأنه لا يتحدى القارئ بل يساعده بكل رفق على فهم عالم الشعر وأدوات الرمز التي استخدمها، فهو يصوغ لك من الحكايات الشعبية شعرا مثل "الحداء"

حل الشتاء

سيشتري حذاء

جاء الخريف

سيشتري حذاء

مضى الربيع

سيشتري حذاء

والصيف انقضى

سيشتري حذاء

الشتاء عاد

تعلم المشي حافيا (ص 5)

كما يحول بعض الأقوال السائرة إلى شعر جميل:

سنفتح في الجنة ذراعا وذراعا

وذراع

مثنى وثلاث ورباع

وسنزرع في أنجب صاعا

وصاعا وصاع

فيحصد كل الجياع (ص 23)

كما يعرف من الأدب العربي إذ تستحيل عنده زرقاء اليمامة هذه المرأة الأسطورة من حيث حد بصرها إلى امرأة لا ترى ولا تسمع:

لم تعد تبصر زرقاء اليمامة

ظلام في ظلام

وقد غاب السمع أيضا

صمت في صمت

ولم تحرك زرقاء اليمامة

ساكنا

سكون في سكون

قولوا أنها ماتت إذن

وحطموا كل المراصد

وقد استغلّ الشّاعر المصري أمل دنقل هذه المرأة الأسطورة إذ صدر له ديوان بعنوان "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" (منشورات الآداب 1969). يقول دنقل:

**ها أنت يا زرقاء  
وحيدة عمياء  
وما تزال أغنيات الحبّ والأضواء  
والعربيات الفارحات والأزياء  
فأين أخفي وجهي المشوّها  
كي لا أعكّر الصّفاء الأبله  
الممّوها**

**في أعين الرّجال والنّساء  
وأنت يا زرقاء  
وحديدة عمياء  
وحديدة عمياء**

هذا من حيث المضمون أمّا من حيث الفنّ الشعري، فإنّنا ندرك مدى حرص الشّاعر على انتقاء المفردات الشعريّة التي لها طابع فنّي محض، وهي عمليّة يمكن أن تعوّض فقدان هذه القصائد والمقطوعات من الميزان الشعري، ورغم خلوّها من الوزن والقافية، إلّا نادرا - فإنّنا نشعر بالإيقاع الموسيقي مثلا في قصيدة "عصفورة" وهكذا فإنّ تجويد الشّاعر يبرز في توظيف بعض المفاهيم المتداولة لدى القراء وقد اكتسبت طابعا رمزيّا جديدا كما يظهر في اختيار الألفاظ التي تساعد على اكتساب تلك المعاني وظيفية جديدة، ولعلّه بذلك خلق عالما خاصّا به يشدّ القارئ بضع دقائق ثمّ ينفلت منه عندما يصادف بعض القصائد الموعلة في الرّمز وللقارئ الحقّ عندما ينفر من الأشعار التي تتحدّاه بغموضها وطلاسمها فتتعدّد وسيلة الرّبط بين الشّاعر والقارئ، وهذه مأساة الشعر العربي خاصّة اللبناني منه مثل انسي الحاج واضرابه.

وأخيرا فإنّ "الأرض عطشى" هو الخطوة الأولى للشّاعر الشاب وستتلوها خطوات أخرى تكون أكثر جودة وعمقا وأصالة.

المطبعة العصريّة فيفري 1980 - 30 صفحة (قطع صغيرة) الثمن:  
500 مليم